العمي يبصرون والصمُّ يسمعون

ان لم يكن للتمدن الحالي حسنة يمدح اهلهُ عليها ومأثرة يحمدون لاجلها غير سعي الانسان في تخليف بلايا الانسان فكفى بها حسنة تذكر ومأثرة تشكر. وان لم يكن هنالك دليل على ما يستطيع الانسان عملهُ بالصبر والمثابرة والثبات غير الحكاية التي نحن بصددها فكفى بها دليلاً على ان هذه المناقب قد تفعل العجائب. فان كان العمي قد ابصروا والصم قد سمعوا قديمًا بيد غير منظورة امتدت مما وراء الطبيعة وخرقت حجابها فهم يبصرون الآن ويسمعون بوسائط طبيعيَّة واسباب منظورة رائدها الصبر ومحورها طول الاناة

هلن كلر فتاة اميركيَّة ولدت سنة ١٨٨٠ وما استكملت سنة ونصفًا من عمرها حتى مُنيت بمرض ذهب ببصرها وبسمعها وبقيت حاستا الذوق والشم فيها طبيعيتين وصحتها حسنة. وبفقد بصرها وسمعها فقدت كلَّ واسطة للتفاهم والتخاطب بل فقدت المقدرة على النطق وهي اخصُّ ما يميز بهِ الانسان على الحيوان. ولو فقدت بصرها فقط لكان تعليمها الكلام بسيطًا كتعليمهِ لسائر العميان ولكنها فقدت معهُ السمع ولذلك لم تسمع كلامًا حتى تقلدهُ وتتعلمَ النطق فباتت عمياء طرشاء خرساء وبات التخاطب معها امرًا مستحيلاً او في حكم المستحيل

على انها تعلمت التفاهم بالاشارات فقامت مقام الكلام فصارت تَفهم وتُفهم بالاشارات واللمس. واغرب من ذلك انها صارت تكتب وتتكلم. ومن جملة ما كتبتهُ قصة عنوانها "حكاية حياتي" قصَّت فيها الوسائل التي استعملت لها منذ طفوليتها حتى الآن فقالت في وصف ما تعلمتهُ بين اهلها "هزُّ الرأس ذات اليمين وذات الشمال يقوم مقام الكلمة لا وإنفاضهُ الى الامام مقام نعم. وجذب المخاطب باليد مقام تعال ودفعهُ مقام اذهب. وكنت اذا أردت ان اطلب خبزًا وزبدةً لآكل أفلد حركات تقطع شرائح الخبز ودهنها بالزبدة. واذا اردت ان يصنعوا لي شيئًا من الدندرمة للعشاء كنت اقلد حركات صانع الدندرمة وحركات الذي تأخذهُ القشعريرة من البرد. ولما بلغت الخامسة من عمري تعلمت طي الثياب النظيفة بعد غسلها وكنت اميز ثيابي من ثياب غيري"

ولما بلغت العاشرة من عمرها كتبت تقول "لما كنت طفلة صغيرة كنت اجلس في حضن امي واكره ان اترك وحدي وكنت اضع يدي على وجهها وامرُّ بحسِّ شفتيها وهي تتكلم فلم اكن اعلم حينئذٍ ما ذا كانت تفعل لاني كنت اجهل كلَّ شيء"

وقصت قصصاً اخرى عن تذكرته من امور طفوليتها نجتزئ بما نقدّم منها ونذكر بعض الشيء عن طرق تعليمها: وذلك ان اهلها اتوها بمعلمة في ٣ مارس سنة ١٨٨٧ اي بعد ما بلغت السابعة من عمرها. وهاك ما قالتهُ المعلمة في وصف اجتماعها بها المرة الاولى قالت: —

"استعملت لتعليمها في بادىء الامر لعبة صغيرة وكعكة لانها كانت مولعة باللعب واكل الحلويات شأن الصغار. فاعطيتها اللعبة ورسمت اشارات حروف اسمها باصبعي في كفها. فابدت الحيرة ومدّت يدي فأعدت ذلك لها فقلّدت حركات يدي واشارت الى اللعبة. وبعد ذلك اخذت اللعبة منها على نية ان ارجعها اليها بعد ما تتعلم رسم حروف اسمها جيداً ولكنها ظنت اني اريد سلبها اياها فغضبت وحاولت استرجاعها مني فلم اعطها اياها بل قدمت لها الكعكة ورسمت حروف اسمها في كفها فمدت يدها لأخذها ولكني ترددت في اعطائها اياها واعدت رسم الحروف في كفها فقلدتني حالاً فاعطيتها الكعكة"

وبقيت المعلمة نحو اسبوعين على هذه الحال وهي ترسم اسماء بعض الاشياء والافعال في كف الفتاة مثل اللبن والماء والاب والام ومشى وجلس فتعلمها وربخ في ذهنها ان جميع الاشياء يعبَّر عنها بالحروف والاشارات فجعلت تسأل عن اسم كلّ شيء عثرت عليهِ منذ ذلك الحين اي عن الاشارات الكتابيَّة التي تدل على ذلك الشيء حتى تعلمت مرةً ثلاثين اسماً جديداً في ساعات قليلة. وفي ٢٢ مايو بلغ ما تعلمتهُ نحو ٣٠ كلمة. وفي ١٩ يونيو ٤٠٠ كلمة وفي آخر اوغسطس ٦٢٥ كلمة. وفي آخر السنة الاولى من تعليمها ٩٠٠ كلمة

ولم تطل الحال عليها حتى اخذت تتعلم الجمل بعد الكلمات. وكانت قد كتبت مكتوباً مؤلفاً من ٣٠ كلمة بعد اربعة اشهر من شروعها في تعلم الكتابة. وسنة ١٨٩٠ بلغت السنة العاشرة من عمرها وكانت قد التقت التخاطب بالاشارات اليدوية مع من يفهمها ولكنها ابدت رغبتها في التلفظ والنطق باللسان بدلاً من الاشارات باليد وقد قالت في ذلك "وكنت أُحدث اصواتاً واضع يداً على عنقي واخرى على شفتيَّ. وكنت اسرُّ بكل شيء يحدث صوتاً حتى اني كنت الذ بوضع يدي على عنق القط وهو يموء والكلب وهو ينبح والمغني وهو يغني".

وسألت معلمتها يوماً "كيف تستطيع بنت عمياء ان تبلغ السامعين مرادها بواسطة فمها" فاخذت المعلمة يدي الفتاة ووضعتهما الواحدة على عنقها والاخرى على شفتيها وجعلت تتكلم فشعرت الفتاة بحركات الحنجرة والشفتين ثم جعلتها تقلد تلك الحركات على قدر الامكان فتعلمت بذلك احداث الاصوات. وبعد صبر طويل ومشقة كثيرة وسنين من التمرين تعلمت كيفية النطق ولكن جاء نطقها ناقصاً غير مفهوم جيداً بعيداً عن النطق الطبيعي

ولم تزل تتقدَّم شيئًا فشيئًا حتى دخلت كلية رد كلف واخذت تتعلم مبادئ الفلسفة كل ذلك وهي لا تسمع ولا تبصر. فاذا اراد رجل غريب محادثتها وضعت اصابعها على شفتيهِ وعنقهِ وقرأت الاصوات عند خروجها من فيهِ ولكن يقتضي ان يكون التكلم معها ببطيئًا واضحًا. وبهذه الطريقة تعلمت التكلم بالفرنسوية والالمانية والايطالية

وهي شديدة التأثر باهتزازات امواج الهواء حتى يخيل للناظرين اليها انها تسمع الاصوات سمعًا. وقد كتبت في هذا الصدد تقول اذا امسكتُ يد انسان شعرتُ بما يدور في نفسهِ وايدي الذين التقي بهم فصيحة ولو كانت لا تنطق فملمس بعض الايدي يدعو الى الاشمئزاز وملمس غيرها يدل على ان قلوب اصحابها خالية من كل مسرَّة فكنت اشعر حينما المسها كأني اصافح زوبعةً في القطب الشمالي. وايادي غيرهم كانت تفيض بنور كنور الشمس فاذا لمستُها شعرت بحرارة دبَّت في قلبي ولذلك كنت اسرُّ بمصافحة الاصدقاء المحبين كما اسر بتلاوة مكاتيبهم وكنت اقف وسط الكنيسة عند اللعب على الارغن الكبير فاشعر بصدمات امواج الصوت لجسمي كما تصدم امواج الماء السفينة الصغيرة في البحر. قالت معلمتها في وصف تجربة جربوها معها وهي في الثامنة من العمر ليعلموا ما اذا كانت تسمع او لا " فكانوا يصفرون لها ويحدثون اصواتًا اعتيادية فندير رأسها وتبتسم كأنها سمعت ما جرى حتى دهش الحاضرون وكنت واقفة بجانبها وماسكة يدها فظننت ان التأثيرات كانت تنتقل مني اليها فوضعت يديها على مائدة كانت امامها ووقفتُ بعيدة عنها وجعل الحاضرون يصفرون ويحدثون اصواتًا ولكنها لم تبدِ حراكًا ولم يظهر عليها انها علمت بما كان يجري "

وكانت تطمح منذ صغرها الى دخول المدرسة ولما دخلتها اظهرت اقتدارًا خصوصيًا في اكتساب اللغات ودرس التاريخ والادب وقد نشرت كتابها المشار اليهِ وهي لم تتمَّ السنة الثالثة في كلية رد كليف المتقدم ذكرها

وكانت تدرك خطب الاساتذة باشارات ترسم لها في كفها وهاك ما قالتهُ في هذا الصدد "كانت كلمات الخطيب تكتب حروفها في يدي بما يمكن من السرعة فاشعر بها واقرأها بسرعة فائقة فتمر المعاني في ذهني سباقًا لحاقًا ولا اظن ان اللواتي كنَّ يسمعن الخطيب ويكتبن ما يسمعنهُ كنَّ يدركن من معانيهِ اكثر مما ادرك"

اي انها كانت تسمع بكفها ما يسمعهُ غيرها باذنهِ وقد ذكرنا ذلك لبعض النبهاء حين كتابة هذه السطور فاستغربوهُ واستبعدوهُ ولم يصدقوهُ ولا ندري كيف يصدقون ان الاذن تتأثر من تموُّجات الهواء تأثرًا يكفي لجعل العقل يدرك معاني الالفاظ او ان العين

تتأثر من امواج النور المنعكسة عن الكتابة تأثّرًا يكفي لجعل العقل يدرك معناها ولا يصدقون ان الكف تتأثر من كتابة الكلمات فيها بالاصبع تأثّرًا يكفي لجعل العقل يدرك معانيها. واي واحد من المبصرين يغمض عليهِ ويضع يدهُ على كتاب ولا يعلم انهُ كتاب او يضع يدهُ على تفاحة ولا يعلم انها تفاحة او يضع انامله على كتابة كبيرة بارزة الحروف ولا يقرأها اذا كان يستطيع القراءة. وعلى هذا النحو كانت هذه الفتاة تدرك ما تلمسهُ بانامِلها او ما يكتب في كفها الاّ انها مرّنت شعورها فصار ادراكها سريعاً جدًّا وقامت فيها حاسّة اللمس مقام حاستي السمع والبصر

اما حاسّة الشم فليست من الحواس التي يكثر الاعتماد عليها ولكن اذا فقد الانسان حاسّة او حاستين فلا عجب اذا مرّن الحواس الاخرى وقوّاها ولذلك تويت حاسة الشم في هذه الفتاة كما يستدل ممّا جاء في كتابها. من ذلك قولها "مشينا الى العريش مرتشدين اليهِ برائحة المليعة التي كانت تغطيهِ واذا بتغير عظيم حدث في الجو لاني شعرت بانخفاض حرارة الشمس فعلمت ان الغيم حجب وجهها. وشممت من الارض رائحة غريبة وهي التي كنت اشمها منها قبيل العواصف الكهربائيّة". وقولها "كنت يومًا من ايام الربيع جالسة في المصيف اقرأ فشممت رائحة عطرية لطيفة ثم تبينتها فاذا هي رائحة زهر السنط". وقولها "كنا نسرُّ بالخروج الى الغابات في عصر النهار واستنشاق الرائحة العطرية التي تعبق من الارض في اواخر النهار" وقولها "شعرت بسعال الريح من حركات عيدان الذرة واوراقها وبشخير الفرس لما امسكتهُ ووضعتُ اللجام في فمهِ. ولا انسى رائحة نفسهِ النفّليّة". وقالت في وصف زيارتها للدكتور هلمس "لما دخلت غرفتهُ شممت رائحة الجلود وحبر الطباعة فعلمت انها مملوءة بالكتب"

وقال الاستاذ جستر الذي نقلنا عنهُ ما تقدّم انهُ سواء سار الانسان بالاكبرس او بمركبة عادية او سار ماشيًا على قدميهِ فالوصول الى المكان المقصود هو واحد كيفما كان السير اليهِ الاّ ان الطريقة الاولى سريعة والثانية بطيئة والثالثة متعبة وهذه الفتاة فقدت الحاستين اللتين يكون الاعتماد عليهما عادةً في اكتساب المعارف ولكنها استخدمت حواسها الاخرى فبلغت الغرض المطلوب ولو بمشقة. وقد قالت في هذا الصدد "اني لما رأيت نفسي محرومة السير في السبيل المطروق لنيل المعارف اضطررت ان اسير اليها في طرق غير مطروق". ومن رأي الاستاذ جستر ان قواها العقلية فائقة جدًّا ولا سيما في تعلم اللغات وكتابها يدل على انها ممتازة بتوقد الذهن وقوة الذاكرة ودقة الملاحظة وسرعة الخاطر ومحبة الادب واتساع المدارك ومحبة الطبيعة والكتب هذه هي الصفات التي اشتركت في تكييف حياتها ومطالبها